زاوية

صراع الحضارات من توينبي الى هنتغتون

د. رياض الاسدي

لم تكن موضوعة صراع الحضارات وما نتج عنها في العقد الأخير من القرن العشرين جديدة على الفكر الإنساني، فقد اشتبلها منذ بداية عصر التنوير الأوربي مفكرو النهضة الحديثة في محاولة بدئية لاكتشاف الذات الأوربية التي خرجت توأمن جلد العصور الوسطى. وبعد تطور الفكر الأوربي، في القرن التاسع عشر بخاصة، كان للمدرسة الألمانية (تيار تريتشكة) دور أساسي في تبلور مفهوم الحضارات والعلاقات فيما بينها. لكن الدراسات الجادة التي قدمها أرنولد توينبي، العلامة البريطاني المعروف، حازت على اهتمام مبكر من مفكرين مختلفين ومتابعين ثقافيين من أماكن مختلفة في أنحاء العالم في النصف الثاني من القرن العشرين.

كان توينبي قد تربع على عرش أقدم مملكة معلوماتية في العالم، وهي مكتبة المتحف البريطاني التي احتوت على وثائق تاريخية مهمة تمكن من خلالها أن يقدم نظريته السماة (التحدي والاستجابة) الحضاريين، التي حازت على اهتمام وتفحص كبيرين على الصعيد العالمي.

وكان توينبي قد زار بغداد عام (1974)، وألقى محاضرة قيمة عن التاريخ الحضاري والحضارة العربية الإسلامية، وقد عرف بموقفه الموضوعية تجاه معظم القضايا الخلافية المتعلقة بدور العرب في التاريخ الإنساني، فضلاً عن موقفه الإيجابية بإزاء القضية الفلسطينية، وقد غصت (قاعة الشعب) بالباب المعظم وقتذاك بالحضور الثقافي للرحب بتوينبي، وكان الرجل قد ناهز عقده السابع، فبدأ صوته محشرجاً، ولم يكن ثمة أحد قد تنبه حينئذ إلى الربط بين صعود نجم (الإمبريالية العالمية) وقضية الحضارات الشائكة.

يبدو أن مسألة (صراع الحضارات) في اصولها وخصوصيتها قد استحوذت على العقل الإعلامي الغربي من جديد، بعد أن غادرته قبيل انتهاء الحرب الكونية الثانية (1935-1945)، فظهرت على السطح الغربي بعيد انهيار الاتحاد السوفيتي عام (1991) كنظرية جاهزة لتفسير الصراعات الدولية الحاضرة، ولتأخذ طوراً جديداً ومختلفاً من خلال ارتدائها حلة فضفاضة فاقحمت عن عمد في ميدان البحث عن دوافع الاحتكاكات الحضارية، فمن الذي أعاد إلى تلك الطروحة الحياة من جديد بعد أن كادت (الأفكار الاشتراكية) تطغى في تفسيرها للصدامات الدولية طوال العقود التسعة في القرن العشرين؟ وهل عاد الصراع بين الشرق والغرب بثوب حضاري بعد أن سقط عنه رداء الطبقية؟

لا شك أن سقوط الاتحاد السوفيتي قد أحدث ما يشبه (الفراغ الايديولوجي) لما مثله من دعوات اتخذت طابع الأممية، ناهيك عما رسمته من سيناريوهات متعددة للتحرر العالمي وانتصار البروليتاريا النهائي على قوة الرأسمال. وإذا كان البعض يعتقد أن اختفاء السوفييت من الحضارة العالمية لا يعني نهاية غير سعيدة للفكر الماركسي فهو واهم -من وجهة نظري- لأن ذلك الفكر على العموم ما كان له أن يعيش ويترعرع لولا الدولة السوفيتية وجهود لينين وستالين. وهكذا، فإن غياب دعم الدولة عنه سوف يضعه حتماً في خانة الأفكار التأريخية.

واحدث تفكك الاتحاد السوفيتي وظهور روسيا من جديد دوياً هائلاً على مستوى العلاقات الدولية، وتزامن تماماً مع العودة إلى التساؤل عن دور الفكر في الحياة الإنسانية ومدى صدقيته؟ وقد هرعت الولايات المتحدة، باعتبارها القطب الوحيد المتبقي بعد نهاية الحرب الباردة (1945-1991)، إلى ملء ذلك الفراغ الأيديولوجي المزعوم. ولذلك بدأت سلسلة من التوجهات السريعة والمبالغة، أحياناً بحث مراكز الإعلام وشركات الدعاية الفكرية لتهيئة مناخ مواجهة جديدة دون أن تمتلك أية تصورات دقيقة مسبقة. وبدأ الحشد الأمريكي على الطريقة البرغماتية، وكما يحدث في الصفقات التجارية، إذ اجتمع عدد من أساتذة الجامعات مع بعض الكتاب المهتمين بالدراسات الستراتيجية إلى جانب مستشرقين معروفين وصحفيين وإعلاميين بدعم من مديري شركات كبرى، وربما برعاية خاصة من وكالة الاستخبارات المركزية، جلبوا جميعاً وشرعوا يخططون لمستقبل عالم ما بعد الحرب الباردة.

قدم صامويل ب هنتنغتون أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد ورقة عمل حول (صراع الحضارات)، لتصبح فيما بعد محط سجال فكري في ملف أعدته مجلة (Foreign Affairs) المعنية بالشؤون الدولية عام (1991)، كما أسهم في الحوار المستشرق والمؤرخ المعروف برنارد لويس باعتباره واحداً من أكثر الناقدين المحدثين للحضارة العربية الإسلامية. ثم روجت تلك الورقة مفاهيم وطروحات شتى على نطاق واسع، كأنها (قنبلة فكرية موقوتة). أما القارئ البسيط فإنه يجد فيها ما هو متميز وجديد، فكيف بالمختص؟! وهي -في أفضل أحوالها- لا تعدو أن تكون محض أحكام مسبقة ومتسرعة لمسألة الحضارات الإنسانية. فالحضارات، مهما كان عددها ومكوناتها الداخلية، رافقت الإنسان منذ القدم كما أن الظاهرة الانقسامية للثقافات الإنسانية لم تقم إلا بدور ثانوي في الصراعات العسكرية على مدى التاريخ، وغالباً ما جاء ذكرها تتويجاً لعموم حركة التصادم الحضاري. وهكذا، فإن التقسيم الحضاري (الجديد) لعالم، هو محض خيال فظ. وإذا كان برنارد لويس قد أدلى بدلوه التاريخي في لعبة الحضارات تلك، فإنه -في الواقع- لم يخرج عن طروحات سابقة له. ولا يمكن بعد ذلك لمثل هذه الموضوعية أن تتخذ لها جذراً تاريخياً دقيقاً، فكتب لويس: "أن صراع الحضارات، ردفعل تاريخي لخصم قديم لتراثنا اليهودي-المسيحي وحاضرنا العلماني، والتوسع العالمي لهما معاً، إن الصراع سيبدأ من أجل نظام دولي جديد" والدقيق في هذا النص يمكنه أن يكشف بسهولة الدوافع الصهيونية الكامنة فيه، كما إنه، في الوقت نفسه يقفز فوق حقيقة تاريخية معروفة تتمثل في الصدام المزمن بين اليهودية والمسيحية، وهو اسلوب يتلاءم حالياً مع التحالف الأمريكي-الإسرائيلي، وهو لي للحقائق التاريخية كي تصبح متكيفة مع الواقع الراهن.

تجبرنا (المجموعة الفكرة الأمريكية الجديدة) على تغييب العوامل الاقتصادية تماماً في قضية صدام الحضارات، وتقترح علينا غالباً النظر إلى مخرجات العملية الحضارية، غير عابئة بمدخلاتها على الإطلاق، وهو توكيد واضح للمنهج البرغماتي المعتمد. فالحضارات الست أو السبع المتبقية على سطح الأرض من إحدى وعشرين حضارة قديمة، تقودها الآن حضارة الغرب وحدها، وفي الواقع العملي: الحضارة الأمريكية. ومن هنا فإن فرانسيس فوكوياما (ياباني الأصل أمريكي الجنسية) قد وضع نهاية منطقية للتاريخ الحضاري الإنساني ببقاء الحضارة الأمريكية وحدها، في عودة مبطنة لأفكار تنازع البقاء على المستوى الحضاري، التي حاربها الغرب بشدة في عهد النازية وعدها واحدة من خرافات الجرمان. وهكذا، عمل صامويل هنتنغتون على صناعة أنموذجه الحضاري المؤسس سلفاً على أفكار عنصرية حضارية بحتة في محاولة للخروج من المأزق الأيديولوجي الذي خلفه انهيار الماركسية القديمة.

مرجعية الوحدة الوطنية

كشفت الاحداث التالية لسقوط التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية عن ضرورة رفع فكرة (الوطنية العراقية) الى مصاف الهوية الذاتية. وليس المقصود بذلك جعلها كيانا متنافيز يقيا قائما بحد ذاته، بقدر ما يعني رفعها الى مصاف المرجعية الكبرى للافراد والجماعات والاقوام والطوائف والاديان والاحزاب السياسية والحركات الاجتماعية، اي للعراقيين جميعا. وهي مهمة ممكنة في حال صياغة اسس الوحدة الوطنية على هيئة منظومة متكاملة، كما حاولت وضعها فيما سميت سابقا (فلسفة الاستعراق)، وهي فكرة تستند بدورها الى رؤية فلسفية تقول بان الوحدة هي غاية وجود الاشياء كلها.

ميثم الجنابي

فمكونات العراق، شأن كل كيان متميز، لا يمكن عزلها عن الجغرافيا والتاريخ والثقافة والدين والاقوام. فمن الناحية الجغرافية ليس العراق سوى حوض وادي الرافدين ووحدتهما ومصبهما في الخليج، فهو الشريان الذي يمد وجوده ويوحد اراضيه ويجعله معقولا حتى بالاسم. وليس تاريخيا سوى الامتداد (الابدي) لكل من اور وبابل ونينوى وبغداد، وثقافيا ليس الا تحصيلة التراكمة من مسار حضاراته الكبرى كالسومرية والبابلية والاشورية والاسلامية، ودينيا ليس الا تراكم العقائد من وثنيات واديان قديمة وصابئة ونصرانية ويهودية واسلامية. وليس (قوميا) سوى السبيكة المنصهرة من عشرات الاقوام والامم في مجرى بناء وانحلال اعرق الحضارات العالمية المتتالية عليه.

كل ذلك شكل، ويشكل، لهوية العراقية المتنوعة وراء تنوعه الثير، وهي هوية تشكل القوة القائمة وراء تعطافاته وتعرجاته الحادة وصعوده وسقوطه بين الحين والاخر. واذا كان من الصعب حصر هذه لهوية بعبارة دقيقة، فلانها تثير، شأن كل الحقائق الكبرى، الى واقع ارتقائها الى مصاف الحدس الثقافي. فزقورات اور، و(بتايا) برج بابل وحدائقه المعلقة، وقلاع نينوى واثارها، ومسلة حمورابي المرقمة، وذاكرة دار السلام وجداول البصرة وشطآنها اللينة بدماء الزنج وعرق فلاحيها وخرابها التكرر وكثير غيرها، هي مجرد اصداف مرمية على طريق الحياة التي تعثر على استمرارها العميق في الذاكرة الثقافية، من ملحمة كلكامش وقوانين حمورابي وتواريخ الامبراطوريات الغربة، ومدارس البصرة والكوفة اللغوية، والتراث البطولي للخوارج والوجدان العارم والاستشهاد العظيم للشيعة ولسان الحسن البصري وكلام المعتزلة ونحلة اخوان الصفا والاشاعرة وفقه ابي حنيفة وجعفر الصادق وثبات الختار وابن حنبل وصوفية الجنيد والحلاج وبيان الجاحظ وادب التوحيدي وشعر التنبي وقصص الف ليلة وليلة وهلالك هولاكو... هذه هي الكونات التي تلتنم في فيضاء الابداع التاريخي للهوية المادية والمعنوية العراقية، فهو الامر الذي يجعل من العراق وحدة من طراز خاص ونموذجا فريدا، كما لا يمكن فصل هذا النموذج عن خصوصية تكونه التاريخي والثقافي المرتبط بالعروبة والاسلام، فهما الكونان الجوهريان في بنيته التاريخية والثقافية والروحية والسياسية. فكما ان الفارسية والاسلام (الشيعي) هما العنصران لجوهريان في ايران والطورانية والاسلام (السني) في تركيا والسلافية - الروسية والنصرانية (الارثذوكسية) في روسيا والانكلوسكسونية والبراجماتيكية في اميركا والجرمانية والنصرانية (البروتستانتية) والقبطية والعروبة الاسلامية في مصر فان العروبة والاسلام هما العنصران لجوهريان اللذان صنعا خصوصية العراق واصالته المعاصرة.

لقد تمثلت العروبة فيه وامتصت شخصية وتقاليد العراقيين القدماء لانهم جميعا من ارومة واحدة (ما يسمى بالساميين). اذ ليس العراقي (العربي) سوى حصيلة الانصهار التاريخي - الثقافي للساميين جميعا، بما في ذلك عرب الجزيرة. وهو انصهار صنعته العقيدة الاسلامية ومبادؤها الثقافية بصورة تامة وجعلت منه كيانا خاصا. فالكينونة العراقية منذ البدء هي كينونة ثقافية، والكينونة العربية فيه هي الاخرى كينونة ثقافية بفضل العقيدة الاسلامية نفسها. فقد مثل الاسلام، من حيث مبادئه الكبرى، رؤية كونية ثقافية لا مكان فيها للعرقية والقومية الضيقة. وليس مصادفة والثقافات، كما لو انها تعيد صورة بابل القديمة ولكن على اسس جديدة ومنظومة فكرية متجانسة تربط في كل واحد الابعاد الطبيعية والماورائية الطبيعية في الفرد والامة والدولة. من هذا تحولت بغداد الى مركز للخلافة العباسية، اي فتطلب الوجود الثقافي العالمي انذاك. وفي هذين التجاهين اخذت تتكامل العروبة الاسلامية بهيئة امة ثقافية وليست عرقية. فالجوهري في الامة العربية ليس العرق بل اللغة والثقافة. وشكلت بهذا المعنى احد النماذج الرفيعة لتجسيد حقيقة العقيدة الاسلامية العامة بصدد الموقف من القومية.

لقد كانت هذه الوحدة معقولة ومقبولة تاريخيا بوصفها نموذجا متساميا لا يتعارض مع التعدد القومي ولا يتناقض مع مفاهيم الاسلام وتصوراته بهذا الصدد. وقد تحول هذا النموذج الى مرجعية تمثلت تقاليد العراق منذ فجر التاريخ الثقافي الى الان، اما محاولة تخطيها او تهشيمها بالطريقة التي جسد البعث والطغمة الصدامية اسلوبها في العراق الحديث، فقد ادى الى تخريبها التام، وذلك لانهما حاولا ان يجعلا منها كيانا عرقيا خالصا. وبهذا تجاوزا على التاريخ والثقافة ومنطق القومية الثقافية الذي شكل صلب وجوهر القومية العربية، بعبارة اخرى، ان موقف البعث والطغمة الصدامية اديا الى الخروج على النفس، اي على حقيقة لهوية العراقية.

كل ذلك يضع امامنا مهمة اعادة بناء اللحمة التاريخية للعروبة والاسلام بمعايير جديدة من اجل مجانسة لهوية العراقية وبمعنى تنسيق مكوناتها القومية والثقافية والدينية في وحدة عصرية ترتكز الى اولوية الكونات الثقافية، مما يفترض بدوره اعادة النظر بالفكرة القومية العربية والتراث الاسلامي بالشكل الذي يؤسس لكينونتها الثقافية المعاصرة، ومن ثم رفع فكرة الوحدة الوطنية الى مصاف الهوية والبرهنة على استحالة تحولها الى كيان ونموذج معقول ومقبول خارج تراثها العراقي والعربي والاسلامي. اما مضمون هذه النموذجية فينبغي ان يكون ثقافيا حصرا.

ولا يمكن ارساء اسس هذه الكينونة الثقافية على قاعدة سليمة دون الاجماع على مبادئ كبرى تشكل بحد ذاتها اسلوبا لضمان وتحصين الوحدة الوطنية العراقية.

ولعل اهم هذه المبادئ الان هي ارساء اسس دولة القانون والمؤسسات الشرعية، والعمل بالدستور الثابت والنظام الجمهوري البرلماني، وترسيخ منظومة المجتمع المدني على اسس وقواعد الديمقراطية الاجتماعية. هذه هي المبادئ التي تكفل مشاركة الاغلبية واندماجهم في حركة اجتماعية وسياسية وثقافية تهدف الى تنسيق المكونات التاريخية للعراق واعادة صهرها في عملية بناء عصرية، كما انها العملية الوحيدة القادرة على صنع ضمانة وحصانة الوحدة الوطنية وهوية العراق الخاصة، وهي مبادئ يمكن تطبيقها استنادا الى تجربة العراق المعاصر ودروسه الكبرى بهذا الصدد.

لقد شكلت العقود الاربعة الاخيرة من التوتاليتارية البعثية والدكتاتورية الصدامية نفيا شاملا لابسط مقومات الشرعية والحقوق. وعوضا عنها، ساد ما يسمى بـ(الشرعية الثورية)، التي لم تكن في الواقع سوى (شرعية) الانتهاك الدائم للحقوق، مما ادى في نهاية المطاف الى نشوء (حق الحكم)، لطغمة لا تربطها بالمجتمع غير علاقة العبيد ومالك العبيد. وسادت شريعة الغاب كريتية، وهو نمط لم يعرفه تاريخ العراق، وجرى تحول (المجلس الوطني) الى حضيرة لا تجمع الا التفاهات من كل شاكلة وطراز. وجرى مسخ فكرة البرلمانية الى درجة فاقعة، تجعل من الغائه الرسمي فضيلة. ورجع العراق الى عصور لم يعرفها قط منذ فجر التاريخ ولحد الان، ولاسيما وان الطغمة البعثية - الصدامية قد خرقت ابسط التقاليد الانسانية والاسلامية والعربية والعراقية التراكمة على مدى الوف السنين، مما ادى الى انتهاك اسس المجتمع المدني وتضمحلاله التام. والاكثر تخريبا من ذلك انه كان يجري (تعويض) التخريب بنموذج قمعي اضافي، فعوضا عن الغاء النقابات والجمعيات والنوادي والاتحادات يجري تشكيل بديل لها مهمته الاساسية تكريس الانتهاك الدائم لماهية النقابات والجمعيات والنوادي والاتحادات، بحيث جعل منها في نهاية المطاف اجهزة تابعة لاقسى الاجهزة القمعية، وجرى مسخها بطريقة جعل منها مصدر اللنفور والاشمئزاز الذي تغلغل في وعي ولاوعي العراقيين الى درجة التخثر!

لقد ادت هذه الحالة، التي اتضحت معالمها المأساوية بعد الانهيار الشنيع للطغمة الصدامية، الى ابراز اهمية ادراك ضرورة الاجماع على مبادئ كبرى تشكل بحد ذاتها ضمانة وحصانة الوحدة الوطنية، وكذلك تحويل هذه المبادئ الى مرجعيات متغلغلة في ذهنية ونفسية الافراد والجماعات والقوميات والاحزاب السياسية والحركات الاجتماعية والجمعيات والنقابات. والمقصود بذلك مبادئ اقامة دولة القانون والمؤسسات الشرعية والعمل بالدستور الثابت وبناء المجتمع المدني على اسس وقواعد الديموقراطية الاجتماعية، لانها المبادئ التي تحتوي في ذاتها على الامكانيات العقلانية والضرورية بالنسبة لبناء الهوية العراقية المعاصرة، بمعنى انها تفسح المجال امام التعدد العريق في التاريخ العراقي والوحدة المتنوعة فيه وهو الامر الذي يجعل من الممكن تكامل هذه المبادئ في منظومة الهوية العراقية. اما الشرط الضروري لذلك فهو تحول هذه (المنظومة) الى مرجعية تجمع الكل في وحدة الانتماء للعراق.

ان تحويل منظومة المبادئ العامة لادارة شؤون الدولة والمجتمع الى مرجعية عملية - سياسية، يهدف الى تفعيل عصري للهوية العراقية التاريخية، كما يشكل هذا التحويل السبيل الواقعي بجعلها مرجعية وطنية - ثقافية متسامية، اي مرجعية متسامية على التاريخ والسياسة والاعراق والعقائد يتشاطره الجميع افرادا وجماعات واقواما وطوائف واحزابا سياسية وحركات اجتماعية. حينذاك يمكن لهذه المرجعية التسامية ان تشكل مصدر اللروية الواقعية والعملية التجددة للوحدة الوطنية (العراقية) كما انه السبيل الى تحولها لاحقا الى معيار لحق والحقيقة والوطنية والاجتماعية. وهي مهمة لا تناط بحزب او حركة او قومية في العراق بقدر ما انها مسؤولية الجميع بقدر واحد من اجل بلوغ حقيقة العادلة البسيطة القائلة بان العراق ملك للجميع بقدر ما هو ملك لهم. ذلك يعني بلوغ لحالة التي يتحول فيها العراق الى بداية ونهاية الوطنية والهوية الذاتية. حينذاك يصبح التعدد والتنوع الاثراء الدائم للوحدة الوطنية، كما ان الوحدة الوطنية المستندة الى مرجعية الهوية العراقية تصبح الضمانة الفعلية والحصانة الثقافية الدائمة للتعدد والتنوع بمختلف اشكاله واصنافه، وتتحول هذه العلاقة الى مصدر اضافي لترسيخ موقع العراق الاقليمي والعالمي وضمانة فعله التاريخي لاستعادة دوره الحضاري، اذ يمكنه على سبيل المثال ان يقدم نموذجا لحل ديموقراطي وحقوقي للمشكلة الكردية من خلال فكرة التعددية والوحدة الوطنية والهوية العراقية، وهو السبيل الذي يمكنه ان يحول كردستان العراق الى (جنوب كردستان) بالمعنى الذي يفعل الدور الكردي لاحقا في عملية اشراك المنطقة الاسلامية الكبرى (العراق، تركيا، ايران) في تنسيق واتحاد متعدد المستويات بعبارة اخرى ان تحويل المشكلة الكردية الى قضية تعاون ومنها الى ما يمكن دعوته (بالمثلث البناء)، وهو الاسلوب الاكثر عقلانية لتوحيد جهود المنطقة وتكاملها الاقتصادي والسياسي والثقافي. ذلك يعني ان من الضروري تحويل المسار العام للتكامل الكردي بالطريقة الذي يجعل من الاكراد قوة اقليمية متداخلة في مجرى تكامل المنطقة الاسلامية الكبرى (العراق، تركيا، ايران، سوريا). وهو الاسلوب الذي يمكنه ان يحل المشكلة الكردية بصورة نهائية بما في ذلك تكامله في امة فعلية دون حروب وصراعات واستنزاف لقوى الجميع. وهو امر ممكن في حالة تحقيق ما اسميته بالحل الديموقراطي الاجتماعي والحقوقي بالوحدة الوطنية والهوية الوطنية في كل من العراق وايران وتركيا وسوريا. كما يتطلب ذلك في القدر نفسه الارتقاء بالروية السياسية في العالم الكردستاني بالطريقة التي تدرك فيها قيمة ما ادعوه بـ(المثلث البناء) بمعنى العمل من اجل تكامل المثلث العراقي - الايراني - التركي على اسس الديموقراطية لدولة الحق، وهي عملية شاقة لكنها ممكنة فضلاً عن انها الاكثر (اقتصاداً) والاكثر (ربحا) بكافة المقاييس.

وكما ان ذلك يتطلب بلوغ المجتمعات في هذه البلدان مستوى الادراك الراسخ لقيمة المرجعيات التي اشرت اليها فانه يفترض ايضا ارتقاء الشعب الكردي وقواه السياسية بالاخص الى ادراك قيمة هذه المرجعيات بصدد (الاقليات) الواقعة في كردستان (العراق في حالة المعنية). والقصد بذلك اعادة استقطاب وترسيخ (الحقوق التاريخية) للاشوريين. فالقضية الاشورية بالنسبة للشمال العراقي هي كالقضية الاكرادية في العراق. والشيء نفسه يمكن قوله عن كل القضايا والمشكلات الممكنة الوقوع في المنطقة وهذا يعني العمل من اجل حلها بطريقة عقلانية عبر صنع الصيغة الثقافية للوحدة الوطنية والهوية الوطنية. ويمكن للعراق في ظل الشروط السياسية والاجتماعية والقومية المعاصرة ان يقدم نموذجا يخدم الجميع حينذاك تصبح دروب الالام التي مر بها كاللهب للذهب، كما تصبح التضحيات الهائلة التي قدمها في غضون القرن العشرين فعلا له معناه وقيمته التاريخية الانسانية وعندما يبلوغ هذه الحالة تصبح علاقة العراق بالعالم العربي والاسلامي والعالمي امرا تلقائيا من حيث تجانسه، وهي العبرة التي ينبغي تمثلها، والفكرة التي ينبغي اتقان تعليمها للنفس اولا وقبل كل شيء من اجل دفع افاق التجربة العراقية الى محيطها التاريخي والثقافي - العالم العربي والاسلامي، وعبرهما الى العالم ككل.

المثقف الأكاديمي والتحول الاجتماعي في العراق

مقال في سوسيولوجيا (الراهن) السياسي في المجتمع العراقي

د. متعب مناف

هناك اشكالية تحكم العلاقة بين المثقف (الاكاديمي) والتحول الاجتماعي (تطور/تبدل/تغيير)، هي: ان التحول انما يعمل على تفكيك المنظومة المعرفية للمثقف (الاكاديمي)، في الوقت الذي يحاول فيه المثقف اعادة بناء هذه المنظومة للوقوف بوجه هذا التفكيك، وصولاً الى اللحظة الحرجة (Gritieal point) التي يتم عندها التوافق بين تحدي التحول واستجابة المنظومة، وبذلك تتحقق عضوية المثقف وفاعليته.

مرّ المجتمع العراقي بفترات سادتها إشكالية تحدي تفكيك منظومة المثقف المعرفية، ومحاولة المثقف إعادة بناء منظومته استجابة لمثل هذا التحدي وصولاً الى مرحلة الفعل الحضاري التغييري، وذلك وفق التتابع الآتي:

1. فترة الفهم او الفترة التكوينية خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين التي تم فيها التعرف على المجتمع العراقي وامكانية التحرك فيه.

2. فترة التغيير وهي فترة متقدمة على الفهم، وتدخل في مجال اعادة التصميم وصولاً لما يعرف بـ (الهندسة الاجتماعية).

وهذه الفترة هي فترة الخمسينيات من القرن العشرين التي تعدى فيها الفهم الى التغيير، وكان التحرك لولادة هذه الفترة بداية انفتاح المجتمع على تأثير (الآخر)، فكراً وانساناً وقد اشرت هذه الفترة تغذية كانت اعظم لاستجابة المنظومة المعرفية للمثقف قياساً بقبول التحدي (التحول الاجتماعي) لهذا الآخر.

3. فترة الستينيات وفيها تعمقت استجابة المنظومة المعرفية للمثقف العراقي، في الوقت الذي تباطأ فيه قبول التحول الاجتماعي لهذا التأثير مما اضعف تحديه. ان المنظومات المعرفية لمثقفي الستينيات لم تكن متفقة او متقاربة في استجاباتها للآخر وتدفقاتها في اعادة تجديد مفردات منظوماتها المعرفية.

لقد لوحظ هذا التفاوت في الاستجابة والاندفاع لتجديد المنظومات المعرفية لمثقفي الستينيات نمطين من المنظومات المعرفية التباعية (وصم) الدكتور علي الوردي رجالها بأنهم (وعاظ سلاطين) همهم شرعنة خطاب تقبل فيه النخب الجديدة التي مالت نحو (الدولة)، والتي حاولت من خلال قوتها ان تستجيب لتحديات التحول الاجتماعي الى حد الغاء وتهميش دور المجتمع بحجة انه يضم عامة او متخلفين.

4. في فترة سبعينيات القرن الماضي، تم تصعيد بعض مفاهيم (الثقافة الشعبية السياسية) ومنها، ان الحاكمين هم الاجدى في الحكم، لأنهم (سراة) اي ان لهم قدرة على استيعاب التحديات من خلال السير بالمجتمع في طريق الازمات الخلق).

مثل هذه (السراتية) هي التي همشت النخب العراقية الاخرى في المجتمع وميزت بين النخب الحاكمة والنخب العاقلة.

وفي الوقت الذي احتلت فيه النخب الحاكمة الصدارة، ترك للنخب العاقلة احتلال مراكز لا يسمح لها بما يسمى المشاركة في صنع القرار.

هذا الفصل بين السراتية (نخب الفعل والقرار) والنخب العاقلة (نخب اللافعل واللاقرار) نزع عن النخب العاقلة الصفة القرارية وفرض عليها ان تلتزم حدوداً نخبوية ضمن ما سمي بدائرة (الكفاءة).

5. وفي فترة ثمانينيات القرن الماضي، تفاقم سلوك السراتية السياسي للنخبة الحاكة الى الحد الذي فرضت فيه صورتها وتصورها على الدولة والمجتمع، ثم قامت بفصل الدولة عن المجتمع، خوفاً من تطوير الحس الاجتماعي الرافض والعارض، الذي يمكن ان ينتج مجتمعاً مدنياً وقد غيب مثل هذا التصور للدولة السراتية، التي زاد في تهميش نخبتها العاملة التحول الاجتماعي، الذي تصاعد في ظل القمع والخوف السراتي.

6. وفي فترة تسعينيات القرن الماضي، اشتدت وحشية السراتية الحاكمة، بعد ان اكملت ما اقتطعته من التراث السياسي الشعبي.

فلم يعد يكتفى بأن يكون للناس (الفوضى) سراة، ولكن هناك سراة من نوع خاص لهم (تميزهم)، الذي من دونه يدخل نفس هؤلاء الناس في التيه المصيري لأنهم خضعوا لسراة جهال وبذلك، ولدت الثقافة السراتية الاستعلائية، ثقافة الخوف والتخويف والتخوين، التي حافظت على تفردها (تميزها)، في الوقت الذي تحول فيه (الوعظ) السلبي الى (توعيظ) وبدلاً من ان تتحول النخب المثقفة، كما في الستينيات، الى الوعظ بقصد شرعنة الحكام، فان نخب الاتابيب (Tube Elites) انما تنتج واعظة أي انها (توعظ) وتصنع من خلال البرمجة (الرهبة والرغبة) موعظة بذاتها، تسبق شرعيتها حتى قبل ان تتخذ النخبة السراتية والحاكمة التسلطة قراراتها.

وصل ذلك الى حد ان اذاقت السراتية، قال المجتمع!.

7. اما فترة الانهيار من الألفينيات التي تفصلت فيه اكتلة ضخمة من المجتمع العراقي عبر تغييبها وترهيبها وتجاوز ما تفاعل داخلها من تجولات، مع سحق نخبتها وتهميشها، فقد اتخذت فيها سنوات الجمر والانتظار، وكان لهيبها مدمراً شمل استمرار التحول الاجتماعي فاعلاً، في الوقت الذي تراجعت فيه قوة زخم تجديد منظومات الفعل النخبوي المعرفية.

وقد زاد ظرف الاحتلال والاذلال، في افلاس فعل المنظومات المعرفية للنخب، مما اشر العديد من الارتدادات والارتكاسات، ودفع الى التنقيب عن نخب ونخبويات كادت ان تدفن ثقافياً.

ان ما حدث في الالفينيات من انهيار واحتلال واذلال للعراق، يؤكد حقيقة ان المجتمع يتحرك بشكل تفقد فيه قدرة نخبه المتهاونة على اعادة بناء منظوماتها المعرفية للحاق به.

لقد حدثت محاولات (خجولة) في تاريخ بلاد العرب السياسي الحديث للحد من الانهيار الذي تعرض له الوضع في العراق. منها محاولة تحويل مركز القرار (الديني/السياسي) الممثل في الجامع الازهر في مصر الى جامعة، يمكن بها، وعن طريقها، بناء نخبة مثقفة ذات مرجعية اكاديمية.

لكن دخول الثقافة الشعبية التي تفصل بين الحكم والفهم، وشيوع الاوبوية والذكورية في المجتمع، حال بين من تثقفه الجامعة اكاديمياً وبين التحول من الفكر الى الفعل.

وقد جرت محاولات في لبنان لعقلنة حصص الدوزيين الاجتماعي السياسي، في الوقت الذي افتتحت فيه الدول الغربية على اوربا وعبر التوسط لترتبط تجاريا بسوقها وبلغاتها وثقافاتها فكرياً، كما تأرجحت دول جوار العراق (تركيا وايران) بين الفعل والتجريب، وضاعت الشخصية الخليجية خلال متصل (Cotinus) جمع بين الدش (Dish) والدشداشة ويظل السؤال المفتوح والنازف، ما العمل في الراهن السياسي للمجتمع العراقي، مع الشعور بمسؤولية وضع صيغة علاقة تجمع بين العلم والفهم والعمل تحتر الهوة بين المثقف الاكاديمي والتحول الاجتماعي في العراق؟.